الجغرافية الطبيعية في رحلة ابن بطوطة

م. د. محمد عباس حسن العبيدي

قسم الجغرافية / كلية الاداب – جامعة بغداد

مقدمة :

لقد أدت الرحلة دوراً في مجال الكشف الجغرافي لما يحصل معها من اتصال بين الشعوب واكتساب معرفة الواحد بالاخر خصوصاً فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات ، كما وصفها البعض بانها اكثر المدارس تثقيفاً للانسان ، اذ يقول الشامي : صحيح ان كل رحلة قد حققت الهدف لحساب الانسان ونبض الحياة المستمر على الارض وصحيح ان الانسان الذي كرس جهده لانجاز الرحلة لم ولن يفرط ابداً في جني ثمرات الرحلة والانتفاع بها ولكن الصحيح بعد ذلك كله ان الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم التي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الارض بل لقد فجرت في الانسان استشعار المصالح المشتركة التي وثقت عرى هذه الوحدة على الارض ومن غير الرحلة يفرط عقد هذه الوحدة وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك[١] وصحيح انه ربما سعى الانسان على قديمه وتحمل مشقة السفر واخترق حاجز المسافة على امتداد الارض الوعرة احياناً اخرى لاتمام الرحلة وجني ثمراتها في نهاية الطريق . ولكن الصحيح ايضاً ان هذا الحس الفطري قد وضع بصره وقدمه في الطريق الانسب واعانه على كل ارض وبناء على استنفار هذا الحس فقد جد الانسان واجتهد لكي يبتكر الوسيلة المستخدمة في الرحلة . ولتوسيع دائرة الانتفاع بها ولسرعة تركها ولحساب حركة الحياة واستجابة لما لها[٢] كما يرتبط الوصف الجغرافي ارتباطاً وثيقاً

بقصص الرحلات وهو من بعض الوجوه خاصة في بداية ظهوره يرتبط بعلوم الشريعة وباللغة ثم الادب الغني الامر الذي حال دون تشعبه بين فترة واخرى بالجغرافية العلمية ولكن مع ذلك فقد كانت الجغرافية الوصفية تحوي مادة غزيرة مما اسبغ على التراث الجغرافي العربي طابعه المميز واعطاه شكله الخاص عن باقي الامم الاخرى(٣) .

ابن بطوطة شيخ الرحالين :

ان الرجل الذي يقضي احدى وثلاثين سنة من حياته ينتقل في اجزاء العالم المعروف فتحمله اسفاره من طنجة الى مصر عبر شمال افريقيا ثم الى الشام وبعد ان يؤدي فريضة الحج يزور ايران وبلاد العرب وشرق افريقيا ويدخل القدس وحوض الفولغا الادنى ويعرج على القسطنطينية ، بعد هذا كله يمعن في الرحلة شرقاً الى خوارزم وبخارى وكردستان وافغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية وجزر المالديف ، وبعد ان يعود الى بلده يعاوده الحنين الى السفر فيزور الاندلس والسودان ويقطع في اسفاره ما لا يقل عن (١٢٠,٠٠٠) من الكيلو مترات ان رجلاً هذا شأنه يعد بحق شيخ الرحالين اطلاقاً في عصره ، في القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي .

وقد ولد ابن بطوطة وهو –ابو عبدا الله محمد بن عبدا الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة في طنجة عروس المغرب سنة ٧٠٣ هجري / ١٣٠٤ ميلادية وفيها درس العلوم الشرعية على ما يعرف من اسرته من اهتمام بها . فلما بدأ رحلاته كان قد اصبح ممن يشار اليهم بالبنان في هذه العلوم . وقد عرف الحجاج المغاربة رفاقه في السفر فضله وهم في الطريق الى مصر فجعلوه قاضياً لهم(٤) .

خريطة (١)

خارطة تمثل رحلات ابن بطوطة في العالم القديم (حققها الشيخ محمد فخر الدين)

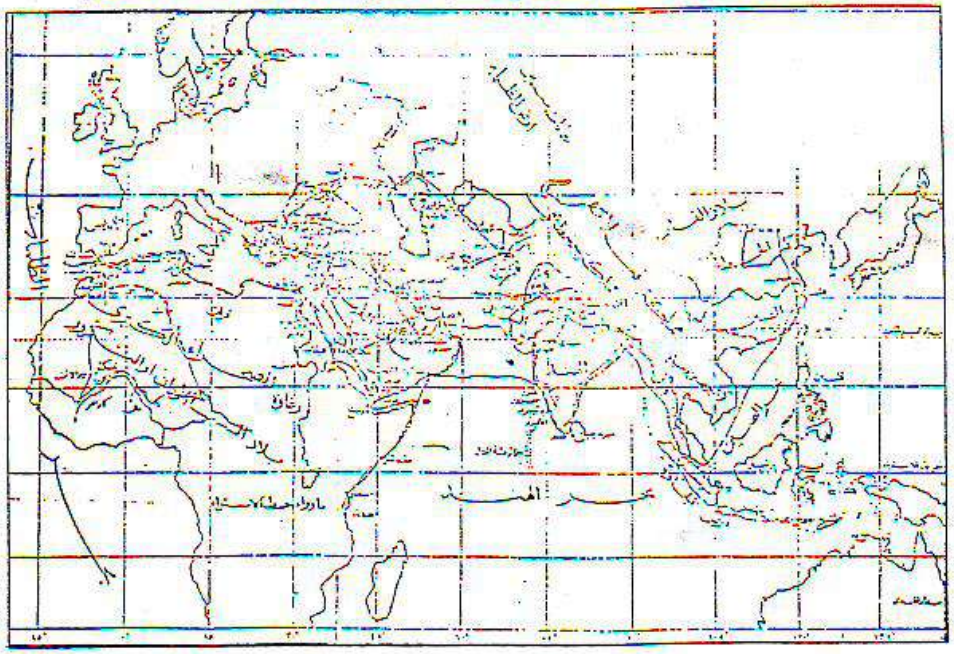

المصدر : شاكر خصاك ، أبن بطوطه ورحلته ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٩٧١ ، ص١٧ .

ومن المؤكد انه يفوق جميع الرحالة القدماء – الافرنج والعرب – في اتساع رحلاته ولم يكن يدانيه سوى ماركوبولو البندقي ، لذا فان رحاله مثل ابن بطوطة شأنه بان يلقى كل تقدير واعتزاز وحري ان تنال رحلته المسامة ((تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار)) كل عناية واهتمام .

فالادب الجغرافي العربي حافل بكتب الرحلات وكان الرحالة العرب والمسلمون صنفين صنف يطوف البلدان لهدف علمي وذلك ليسجل المعلومات الجغرافية والاجتماعية عنها تسجيلاً امينـاً وينتمي الى هذا الصنف الجغرافيون الرحالة ، وصنف يسوح في الامصار لغرض تجاري او سياسي او ديني ثم يدون مشاهداته وملاحظاته في كتاب وهذا الصنف من كتب الرحلات يغلب عليه الطابع الوصفي البحت .

الجغرافية الطبيعية في الرحلة :

فيما يخص الجغرافية الطبيعية من حيث المناخ او الموارد المائية او الجيومورفولوجيا في هذه الرحلة فقد كانت هناك اشارات بسيطة وسطحية بعض الشيء فهو من خلال تنقله بين الاقاليم والبقاع المختلفة يقوم بسرد معلومات مختلفة ومتداخلة عن تلك المناطق فهو يصف المجتمع البشري مبتدأ بالحاكم وحاشيته من حيث التقاليد والعادات في جميع نواحي الحياة المختلفة السياسية والدينية والاقتصادية ثم يقم بوصف الاقاليم في بعض النواحي الجغرافية التي امكن ومن خلال الفحص الدقيق لنصوص الرحلة نلاحظ بعض جوانب الجغرافية الطبيعية عند ابن بطوطة.

اولاً. المناخ :

وردت في هذه الرحلة عدة اشارات عن المناخ عند ابن بطوطة ومع علمنا ان عناصر المناخ متعددة الا ان اهم جوانب المناخ الذي تناولها الرحالة في هذا المجال هي الرياح والحرارة والامطار وسيتم تناولها كلاً على حدة .

أ. الرياح :

اذ يقوم ابن بطوطة بوصف مناخ المدن بحسب نوع الرياح التي تهب علبيها فضلاً عن أنه يطلق عليها احياناً بالحسنة او الطيبة والمعتدلة فضلاً عن ذكر بعض انواع الرياح المحلية السائدة والمعروفة حالياً لدى الجغرافيين وعامة الناس مثل رياح السموم .

اذ يقول عن مدينة بعلبك ((وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام))(٥) ولاشك ان هذه الصفات المناخية الحسنة تسود في معظم جهات بلاد الشام وبما فيها هذه المدينة لما يتمتع به هذا الجزء من العالم من موقع فلكي بالنسبة لخطوط الطول او دوائر العرض فضلاً عن الموقع الجغرافي بالنسبة للبحار

والمحيطات فضلاً عن موقع التضاريس من حيث ارتفاع المنطقة عن مستوى سطح البحر وموقعها المناخي لكونها ضمن مناخ البحر المتوسط(٦) .

ومن انواع الرياح المحلية التي ورد ذكرها في اكثر من موقع في هذه الرحلة هي رياح السموم فهو يذكر اثرها السلبي على الانسان في شبه الجزيرة العربية وبالتحديد بوادي الاخيضر في صحراء تبوك اذ يقول ((هذه البرية وفي وسطها الوادي الاخيضر كانه وادي اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانشفت المياه وانتهت شربة الماء الى الف دينار ومات مشتريها وبائعها...)) (٧).

وقد ورد ذكر هذه الأنواع من الرياح المحلية بما فيها رياح السموم ومسمياتها المختلفة حسب المنطقة التي تهب عليها فضلاً عن التفسير العلمي لأسباب هبوبها ففي فصل الصيف تهب رياح شمالية على المغرب العربي التجارية منها تكون حارة جافة وبالنسبة الى مصر فان اتجاه الرياح صيفاً يكون شمالياً وبالنسبة لسورية والعراق تسود الرياح الشمالية الغربية الناتجة عن تأثير الضغط الاسيوي العظيم والذي يؤدي الى تحرك الرياح باتجاه الشمال قادمة من المحيط الهندي حيث تتعرض لها جبال الهملايا فتؤدي الى انحرافها الى المغرب فتمر فوق ايران وفوق الاناضول وتعود باتجاه القسم الشرقي من البحر المتوسط مؤثرة في الاجزاء الشمالية والشمالية الغربية من العراق ويمتد تأثيرها الى بادية الشام وتكون ذات طبيعة جافة تعرف بالسموم كما تعرف الرياح المحلية في مصر باسم الخماسين وفي اقليم شرق البحر المتوسط بالسيروكو وفي ليبيا بالقبلي وفي السودان بالهبوب(٨) .

ويذكر الريح النسيم فيقول ((ودخلنا ارض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر فتنسمنا نسيمه الطيب الارج))(٩). ويقول كذلك عن القارورة وهو من الصهاريج المائية التي اتخذتها زبيدة زوجة هارون الرشيد (رحمها الله) على

طريق الحج لانقاذ حجاج العراق من مخاطر العطش ومن خلالها كذلك اتخذ الطريق حدوداً واضحة عبر متاهات النفوذ الكبرى والهضبة النجدية فهو يقول عنها ((هي مصانع مملؤة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر (رحمها الله) ونفعها وهذا الموضع هو وسط ارض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل..))(١٠) ويرجع السبب في هذا النسيم والهواء الصحيح الى ارتفاع الهضبة الذي يصل الى (٩٠٠م) فوق مستوى سطح البحر رغم وقوع هذه الهضبة ضمن المناخ الصحراوي الجاف(١١) .

ويظهر على قوله العمومية والبساطة في وصف مناخ سامراء اذ يقول عنه ((وهي معتدلة الهواء رائقة الحسن)) (١٢) .

ويرجع ذلك الى وقوع هذه المدينة في الجزء الشمالي من السهل الرسوبي ضمن المنطقة الانتقالية ما بين المناخ الصحراوي ومناخ السهوب فضلاً عن وقوعها على الخط المطري الذي تكون كمية سقوط الامطار فيه محصورة ما بين (١٠٠ - ٢٠٠ملم) في السنةوكذلك وقوعها على ضفة نهر دجلة ، لذا فهي تقع في منطقة سهلية مفتوحة من حيث الاتساع والانبساط السطحي بالنسبة للتضاريس او اشكال السطح المختلفة . واخيراً التأثير او الاثر الفعال للرياح الشمالية الغربية التي تهب كذلك على هذه المنطقة كغيرها من مناطق السهل الرسوبي .

ويورد ذكر ريح السموم في اوائل شهر يوليو (حزيران) في بلاد السند والهند قائلاً ((وتهب في هذه البرية ريح السموم التي تعفن الجسوم))(١٣) ويرجع ذلك الى ارتفاع درجات الحرارة في تلك الرياح يقابلها ارتفاع نسبة الرطوبة او الرطوبة النسبية . اذ يذكر في نفس الموقع من الكتاب تفسخ جسم الانسان بوقت قصير بعد وفاته ويذكر ايضاً هذا النوع من الرياح السائدة في هرمز وشيراز اي في ايران حالياً.

ب. الامطار :

بعد ان تحرك من طنجة بمراحل بسيطة وبعد ان مر بتلمسان وصل الى قسنطية الذي يذكر فيها المطر بقوله ((واصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج من الاخبية ليلاً الى دور هنالك...))(١٤) وهو امر لاشك فيه من حيث غزارة الامطار في هذه المنطقة لوقوعها ضمن مناخ البحر المتوسط فضلاً عن تأثير البحر المتوسط المباشر عليها وتأثير التضاريس المتمثلة بجبال اطلس التل على مناخها وبالتالي على كمية الامطار الساقطة.

وعند مروره في الهند لا يفوته ان يذكر امطارها الصيفية كما ذكرها من قبله العديد من الرحالة والجغرافيين العرب كالاصطخري والمقدسي وابن حوقل والبيروني وغيرهم كثر لكونها ظاهرة مناخية ملفتة للنظر اذ يقول عنه (وقد نزلنا بها - اي الهند - على نهر يعرف بنهر السرور وذلك في اوان الشكال ، والشكال

خريطة (٢)
نطاقات المطر في الوطن العربي

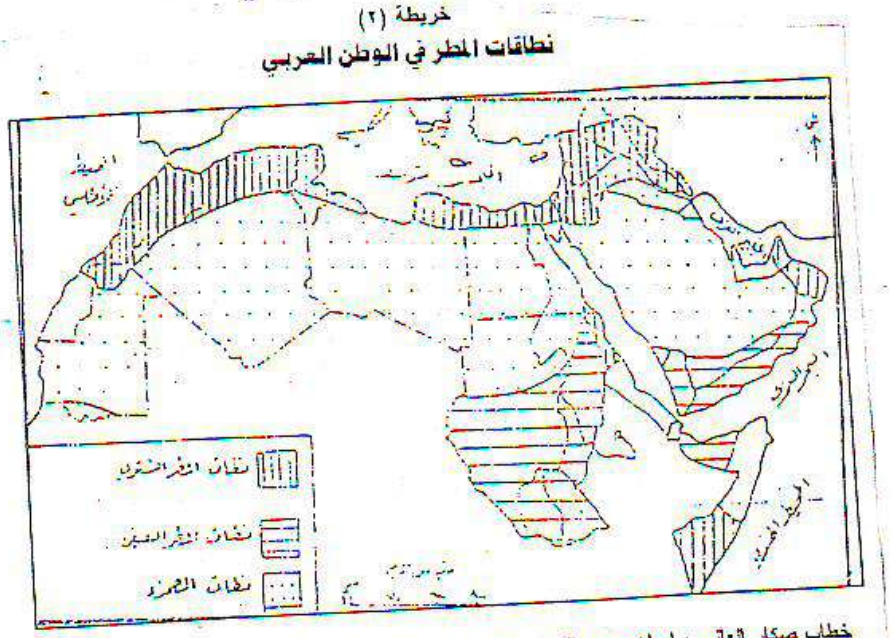

خطاب صكار العاني ، ابراهيم عبد الجبار المشهداني ، جغرافية الوطن العربي ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ١٩٩٠ ، ص١٠٠

المصدر : خطاب حكار العاني ، ابراهيم عبد الجبار المشهداني ، جغرافية الوطن العربي ، مطبعة التعليم العالي ، ١٩٩٠ ، ص١٠٠ .

عندهم هو المطر وينزل في ابان القيظ وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال أراجيل)[١٥]. فقد وافق هذا الكلام التفسير العلمي لهذه الظاهرة اذ تكون الاجزاء الجنوبية الشرقية لقارة اسيا في فصل الصيف مركزاً لضغط منخفض عظيم الاتساع عميق تنجذب نحوه الرياح الموسمية الصيفية من المحيطين الهادي والهندي ولهذا السبب نجد ان هذه القارة تضم اعظم الاقاليم الموسمية المدارية في العالم حيث تشمل القسم الاكبر من جنوب وجنوب شرق القارة . وتسقط امطار معظم هذه الاقاليم في فصل الصيف واغلبها امطار تضاريسية تكثر بصفة خاصة على السواحل المرتفعة التي تهب عليها الرياح عمودية من ناحية البحر . في الهند نجد ان طول الفصل الممطر يزداد كلما اتجهنا جنوباً نحو الاطراف الجنوبية لهضبة الدكن لانها اول المناطق التي تصل اليها الرياح الموسمية الصيفية الممطرة من المحيط الهندي[١٦] .

ولنفس الاسباب المؤدية الى سقوط امطار الهند الصيفية تسقط الامطار في اليمن والسودان وخاصة في الاجزاء الجنوبية منها كما جاء في التفسير العلمي الحديث لهذه الظاهرة . كذلك يستغرب الرحالة ابن بطوطة لهذه الظاهرة قائلاً عن امطار مدينة صنعاء في اليمن ((معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في ايام القيظ واكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم من ذلك الاوان. فالمسافرين يستعجلون عند النزول لئلا يصيبهم المطر واهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان امطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع ازقتها ...))[١٧] .

وبالمقابل يتكلم عن الامطار في جدة وندرتها فيقول ((جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد ... وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب على جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون عن الماء من اصحاب البيوت ...))[١٨] .

وكما يظهر من الخارطة رقم (٢) فان جدة تقع ضمن النطاق الصحراوي مناخياً ورغم وقوعها على ساحل البحر الاحمر الا ان هذا المسطح المائي يكون تأثيره معدوم على المناطق المجاورة لكونه يتعامد مع الرياح الهابة من الغرب اضافة الى كونها رياح هابة من منطقة صحراوية اصلاً كما ان هذه المنطقة تكون بعيدة عن تأثيرات مناخ البحر المتوسط وتأثيرات الامطار الصيفية جنوب اليمن .

ويتلمس الفرق بين المناطق الصحراوية والساحلية والمرتفعة اضافة الى بعد المنطقة عن المنطقة الاستوائية من حيث المناخ ونوع التساقط فيها حسب طبيعة المناخ ، فيتكلم عن مناخ الجهات الجبلية فيقول عن مناخ بعض جهات بلاد الروم كما في مدينة كبنوك اذ يقول ((ونزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء ...)) (١٩) .

ويقول كذلك ((وصلنا الى مدينة مطرني وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير غطى الطرق)) (٢٠) وهو يكرر ذكر الثلج ونزوله الغزير في اكثر من مكان اذ يقول: ((فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد ...)) (٢١) . وبهذا فنراه في هذا الموضوع يذكر انواع التساقط المختلفة مثل الامطار والثلج والبرد .

جـ. الحرارة :

اما في هذا المجال فان الرحالة يحاول المقارنة بين الجهات المختلفة من حيث الارتفاع والانخفاض في درجات الحرارة سواء كانت هذه المناطق سهلية ام جبلية او قريبة من خط الاستواء او في الجهات الشمالية البعيدة من العالم المعمور انذاك .

فهو يورد الفرق مثلاً بين الجهات المرتفعة كالجبال وبين الجهات المنخفضة كالوديان من حيث الارتفاع والانخفاض في درجات الحرارة فيقول ((يرحل الركب في العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو

شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منه الا اليسير ...)) (٢٢) .

واحسن دليل على هذا الكلام المقارنة بين مناخ مدينة الطائف الواقعة على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر ومدينة جدة الواقعة بمستوى سطح البحر حيث تصل درجة الحرارة في الطائف في فصل الصيف الى (٢٨) درجة مئوية في حين تصل في جدة الى (٤٥) درجة مئوية(٢٣) .

وحينما يذكر المناخ وطبيعة الحرارة يوضح دورها من حيث الارتفاع او الانخفاض في نوع النبات السائد فيقول ((من عجائب هذا الموقع المعروف بحكمان ان نصفه مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل ...))(٢٤) وهذا لاشك يرجع الىموقع شيراز الجبلي والتأثيرات القارية على هذه المنطقة يقابله في الجانب الاخر موقع هرمز السهلي المتأثر بالرياح الهابة من المحيط الهندي الناتجة عن اختلاف مناطق الضغط بين اليابس والماء .

ويعقد مقارنة بين صنعاء وعدن من حيث الموقع التضاريسي والبحري ويوضح نوع النبات السائد فيها اذ يقول بعد ان يصف مدينة صنعاء من حيث الزرع والمناخ الحسن عن عدن (مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع بها الماء ايام المطر والماء على بعد منها وهي شديدة الحر) (٢٥) .

فعند ملاحظة موقع المدينتين التضاريسي نرى ان صنعاء تقع على سلسلة جبال عالية في حين تقترب عدن من مستوى سطح البحر وذلك مما يساعد على سقوط الامطار شتاءً على صنعاء في حين تسقط الامطار الصيفية

على عدن مما لا يساعد على قيام الزراعة بسبب الارتفاع الشديد في درجات الحرارة بسبب الموقع الفلكي للمنطقة بصورة عامة.

كما يذكر بعض مدن قسطنطينية ومناخها الشديد البرودة ومنها مدينة اكك فيقول فيها (حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرودة) ويعزى سبب البرودة فيها وسقوط الثلج لموقعها الجبلي من (جبال الروس) كما يطلق عليها ابن بطوطة وهي حالياً جبال البلقان فهو هنا يلاحظ دور الارتفاع التضاريسي على مناخ المنطقة ، ويوضح الفرق بين مناخ المدن الجبلية والمدن الساحلية كمدينة سرادق اذ يقول عنها : ((على ساحل البحر ... وبخارجها البساتين والمياه ...)) (٢٦) وهي اشارة منه الى دور البحار والمسطحات المائية على نوع المناخ والزراعة ضمن المنطقة .

ويصف طبيعة المناخ القاسي البرودة في الجهات الجبلية وصعوبة العيش بالنسبة للانسان في مثل هذه البيئة فيقول عن جبال الهند كوش ((ومعناه قاتل الهنود)) لان العبيد والجواري الذي يؤتي بهم من بلاد الهند يموت هناك الكثير منهم لشدة البرودة وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل واقمنا حتى تمكن دخول الحر ...)) (٢٧) .

ويلمح الى مناخ الهند فيقول عن مناخ سيوستان : ((ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان اصحابي يقعدون عريانيين يجعل احدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فيما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبللها مرة اخرى وهكذا ...)) (٢٨).

ثانياً. الموارد المائية :

وفيما يخص الموارد المائية التي تمت الاشارة اليها في هذه الرحلة فبالاضافة الى الامطار ودورها في الانتاج الزراعي او في مناخ المنطقة فقد اشار

ابن بطوطة الى الانهار كمورد مائي مهم وكذلك العيون والابار وبعض البحيرات التي مر بها .فيما يخص الانهار فقد قام بوصف نهر النيل وفيضاناته واهميته في الزراعة وسعة هذا النهر ولم يسمى نهر غيره بالبحر او اليم كما قال تعالى : ((فاذا خفت عليه فأليقه في اليم)) واشار الى ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا النهر في ليلة الاسراء وذكر كذلك مخالفة نهر النيل بالجريان من الجنوب الى الشمال خلافاً لجميع انهار العالم(٢٩) .

ويشير الى دور نهر النيل بقوله :((ومدينة دمياط على شاطئ النيل واهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات – اي درجات سلم ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر))(٣٠) ويقول في مكان آخر من هذه الرحلة عن هذا النهر ((ونيل مصر يفضل على انهار الارض عذوبة ومذاق واتساع قطر وعظم منفعة المدن والقرى بضفتيه ليس في المعمورة مثلها ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ...)) (٣١) .

ويذكر الفرات وسيحون وجيحون والنيل وفيضانه مع بداية ارتفاع درجات الحرارة صيفاً عند نقص الانهار وجفافها وابتداء نقصه مع فيضان باقي الانهار وكذلك الحال في نهر السند(٣٢) ويكون ذلك بسبب الموقع الجغرافي والفلكي لمنابع نهر النيل من خط الاستواء اذ تقع منابعه على هذا الخط مباشرة . وان زيادته في حزيران (يونيه) وما لهذا الفيضان او الزيادة المائية من منافع او اضرار اذا زادت عن الحاجة او المطلوب .ويقول ان النيل احد انهار الدنيا الكبار وهي النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون . كما يذكر خمسة انهار اخرى تناظرها في الحجم وهي حسب ما يسميها (السند والهند ونهر الجون بالهند اضافة الى نهر الهند السابق الذكر ونهر اتل بصحراء قفجق وعلى ساحل مدينة السرى . واخيراً انهر السرو الذي ينحدر الى مدينة الزيتون في الصين) . كما يذكر انقسام النيل الى ثلاثة اقسام كبرى لا تعبر الا بواسطة السفن(٣٣) .

ويشير الى نهر البنجاب فيقول :((بنج اب وهو ماء السند وبنج معناه خمسة واب معناه الماء فمعنى ذلك الاودية الخمسة وهي تصب في النهر الاعظم وتسقى تلك النواحي)) (٣٤) ويقول عنه كذلك ((وهذا الوادي من اعظم اودية الدنيا وهو يفيض في اوان الحر فيزرع اهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل اهل الديار المصرية في فيض النيل)) (٣٥) ويقصد بالنهر العظيم هنا نهر السند .

ويذكر نهر كامرا او نهر الازرق ودوره في عملية الري ويقول عن مدينة حنق ((وهي من اكبر المدن واحسنها ويشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرا ويسمى النهر الازرق ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنه ويسرى كما هي على نيل مصر)) (٣٦) وهنا يشير الى نهر براهما بوترا وانحداره من سفوح التبت ودوره في ري الاراضي الزراعية في بنكلادش (بنجالة) ممثلة بالقرى والبساتين مقارنة بنهر النيل ودوره في سقي اراضي مصر وكذلك نهر السند في الهند .

ويتكلم كذلك عن اهم الموارد المائية في الصين وهو كما يسميه نهر السرو (الهوانك هو) فيقول ((اقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف باب حيات معنى ذلك ماء الحياة ويسمى ايضاً (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق ... جبل القرود ويمر في وسط الصين ... وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر الا ان هذا اكثر عمارة عليه النواعير الكثيرة ...)) (٣٧) فهو يقدم وصف شبه متكامل عن نهر الهوانك في الصين الذي يتجاوز طوله اكثر من (٤٠٠٠) كم ومروره في الصين ودوره في الارواء مقارنة بالنيل .

اما فيما يخص العيون والابار فقد تطرق اليها في مواقع كثيرة من لرحلة اذ يورد بالذكر العيون والابار في مكة وعلى طرقها والتي يستريح عندها

يشرب منها الحجيج اثناء الذهاب الى الديار المقدسة والعودة منها وهي ((بطن مر وعسفان ووادي السمك وبدر والصفراء ووادي العروس والعسيلة وغيرها ...)) (٣٨) .

كما يذكر الصفات التي تتصف بها العيون المائية الجبلية فيقول :((النهر معروف بدكن اباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فزيرة من عين في سفح الجبل هنالك يسمى القليعة ...)) (٣٩) .

ويتكلم عن بحيرة طبرية كمثال عن نوع اخر من انواع الموارد المائية التي تناولها في رحلته ويذكرها من حيث العرض والطول فيقول عنها :((طولها ستة فراسخ وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ...)) (٤٠) علماً ان الفرسخ الواحد يساوي ثلاثة اميال عربية او ستة كيلومترات.

ولا يفوته ان يذكر مورد من اهم الموارد المائية في المناطق الجافة الاقاسية مناخياً من حيث التطرف الحراري. فمن خلال ذكره الصحراء التي يسميها (بقاع البزواء) وهي واسعة وفسيحة اذ يذكر مساحتها او طولها بمسيرة ثلاثة ايام فيقول :((وفي منتهاها وادي رايغ يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زماناً طويلاً...)) (٤١) ومن هذه الغدران تستخدم المياه للري سواءكان المزروعات او الحيوان الذي يرعى في تلك الصحاري وخاصة اثناء فصل الشتاء بعد سقوط الامطار مباشرة .

ويقول وفي البسيط – اي الارض المنبسطة الفسيحة – بها عين فواره اي غزيرة المياة وقد صنعت لها اخاديد في الارض وسربت الى الضياع والاراضي الزراعية(٤٢) .

ويتكلم احياناً عن نوعية المياه وامكانية وسبل الاستفادة منها في الشرب او الري فيقول ((ونزلنا سميرة وهي ارض غائرة في بسيط فيه يشبه

حصن مسكون وماؤها كثير في ابار الا انه زعاق . اي شديد الملوحة ومر المذاق...)) (٤٣) .

ثالثاً. اشكال سطح الارض :

وفيما يخص اشكال سطح الارض او الجيومورفولوجيا فقد تمت الاشارة في هذا الكتاب او الرحلة الى هذا الجانب من جوانب الجغرافية الطبيعية من خلال ذكره لموقع المدينة او الاقاليم بالنسبة للجبال او الوديان وكذلك وصف المرتفعات وباقي الاشكال الطوبوغرافية ايضاً والفوارق بينها كما يفرق بين الخور واللسان على السواحل البحرية .

فيما يخص موقع مكة المكرمة بالنسبة لاشكال سطح المختلفة يقول ابن بطوطة :((مدينة كبيرة متصلة البنيان في بطن وادي تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها ...)) (٤٤) فهو بذلك يصف موقع مكة وما يحيط بها من المظاهر الطوبوغرافية كالجبال ويحدد موقع كل جبل والجهة وموقعه الجغرافي بالنسبة لمكة المكرمة سواء كان في الشمال او الجنوب او الشرق او الغرب .

ويقوم بوصف جبال مكة وذكر اسمائها مثل ((الحجون والمحصب والابطح)) اضافة الى ذكر الوديان بين تلك الجبال كوادي ذو طوى والحصحاص ويذكر ثنيه كداء وهو وادي بين جبلين ولا يفوته ان يذكر بالوصف اهم اجبال مكة مثل الاخشبين وهما جبال ابي قبيس وقعيقعان . والجبل الاحمر من جهة الشمال والخندمة وجبل الطير وهي على طريق التنعيم وجبل حراء في شمال مكة مشرف على منى وجبل ثور القريب من مكة على طريق اليمن (٤٥) فهو بهذا يقدم وصفاً واقعياً للسلاسل الجبلية المطلة على البحر الاحمر في الجانب الغربي لشبه الجزيرة العربية ما بين مكة المكرمة واليمن.

ويذكر التفاوت في اشكال سطح الارض ضمن المناطق التي يمر بها اذ يقول ((ثم سافرت في ارض رمله الى دمياط))(٤٦) فعند انتقاله من الاجزاء الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية لابد له ان يمر عبر صحراء سيناء وهي الرملة كما ذكرها حتى يصل الى دمياط التي يذكر عنها انها منطقة زراعية وافرة الانتاج الزراعي . وبالمقابل كذلك يذكر جبل المقطم . وبهذا فهو يقارن بين مختلف اشكال سطح الارض ونراه كذلك ينتقل بالوصف بين الوديان والجبال في بلاد الشام فبعد ان يصف وادي الغور في الاردن فيقول عنه: ((بين التلال))(٤٧) ينتقل الى الجانب الغربي لهذه المنطقة واصفاً أهم المرتفعات الجبلية فيها ومنها الجبل الأقرع الذي يقول عنه : ((الجبل الأقرع هو أعلى جبل في الشام وأول ما يظهر منها من البحر سكانه التركمان وفيه العيون والأنهار)) وكذلك يقول : ((وجبل لبنان هو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء))(٤٨) وهنا يشير الى دور المنطقة الجبلية وآثارها على مناخ المنطقة وبالتالي الى وفرة مقومات الانتاج الزراعي من منابع وموارد مائية وتربة صالحة اضافة الى الموقع الجغرافي والفلكي في تلك الصفات الطبيعية لبلاد الشام . هذا ويشير كذلك الى جبل قاسيون فيقول : ((وقاسيون جبل في شمال دمشق الصالحية في سفحه وهو شهير البركة)) (٤٩) ويذكر أهم المغارات والكهوف فيه مثل مغارة أبراهيم عليه السلام ومغارة هابيل أبن آدم عليه السلام ومغارة الجوع وكهف آدم عليه السلام .

ويصف جبل عرفه بقوله : ((وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به الجبال كثيرة وفي آخره بسيط عرفات جبل الرحمة ...))(٥٠) وفي ذكره جبل سرنديب أي (سري لانكا) يقول : ((وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسعة - اي تسعة أيام - ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل وقد حال بيننا وبينه رؤية أسفله وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ...)) (٥١) . وهذه إشارة الى موقع جبل سري لانكا الساحلي

بالنسبة الى المحيط الهندي وموقع هذه المنطقة الأستوائي فكانت أشجارها دائمة الخضرة لا تسقط أوراقها .

كما يشير الى مرتفعات وهضبة التبت قائلاً فيما يخص جبل كامر وكما يسميه قائلاً : ((وهي جبال متسعة بالصين وتتصل أيضاً ببلاد التبت)) (٥٢) .

ويتضح تصنيف أبن بطوطه لأشكال سطح الأرض والفوارق بينهما من خلاله أشارته الى تلك الأشكال من حيث الأرتفاع أو الشكل فيقول : ((وجبل الرحمة ... وبأزائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ...)) (٥٣) .

ويشير كذلك الى الوديان فيقول : ((وبين بدر والصفراء نحو بريد – أي مجرى نهر صغير – في واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ...)) (٥٤) أشارة الى الوادي ودوره في نقل مياه العيون لسقي الأراضي الزراعية والمحاصيل المختلفة .

ويذكر وادي خسرو بالهند عند مدينة ملتان وموقعها عليه ((وهي قاعدة بلاد السند ... وفي الطريق اليها على مسافة عشرة أميال منها الوادي المعروف بخسرو أباد من الأودية الكبار ...)) (٥٥) . ويذكر الفرق بين الخور – وهو امتداد بحري في اليابس واللسان وهو امتداد يابس أو بري داخل البحر أو المسطح المائي . فيقول عن مرسى طبيعي للسفن من اليابس : ((وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر ...)) (٥٦) .

ويقول كذلك في هذا الشأن عند مدينة كنباية : ((وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب ...)) (٥٧) .

رابعاً. الجانب الفلكي :

وفي هذا المجال لم تكن إشارات ابن بطوطة مهمة وواسعة بل كانت إشارات بسيطة ترى بالعين المجردة لا تحتاج الى أدلة علمية وقياس . فقد كانت إشاراته بصورة خاصة الى المد والجزر والشهب والنيازك فقط .

ففي مجال المد والجزر يقول : ((والبصرة على ساحل الفرات ولدجلة بها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس (العرب) [٥٨] على عشرة أميال منها فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيسقي أهل البصرة الماء لدورهم ...)) [٥٩] .

ويقول عن المد في سواحل الهند عند مدينة كنبايـة : ((وهي على خور من البحر ... وبه المد والجزر وعاينت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر فإذا كان المد عامت في الماء ...)) [٦٠] .

ويشر الى الشهب والنيازك فيقول : ((وسألني السلطان في هذا المجلس فقال لي هل رأيت قط حجراً نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لي أنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجراً أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطاراً وأمر السلطان بإحضار القطاعين فحضر اربعة منهم فأمرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثر فيه شيئاً ...)) [٦١] .

فهرست المصادر :

١. أنظر صلاح الدين الشامي ، الرحلة عين الجغرافية المبصرة ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص٢ .

٢. المصدر نفسه ، ص١١ .

٣. أغنا طيوس يوليا كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية ، لجنة التحقيق والترجمة، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص١٨ .

٤. نقولا زيادة الجغرافية والرحلات عند العرب ، مكتبة المدرس ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص١٨٧ .

٥. رحلة أبن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، ١٩٣٨ ، ص٤٩ .

٦. أنظر : أنور مهدي صالح ، يوسف يحيى طعماس ، الجغرافية العامة للقارات ، مطابع دار الحكمة ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص٦٢ .

٧. رحلة أبن بطوطة ، الجزء الأول ، مصدر سابق ، ص٦٨ .

٨. خطاب صكار العاني ، ابراهيم عبد الجبار المشهداني ، جغرافية الوطن العربي ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص(١٠٣-١٠٤) .

٩. رحلة أبن بطوطة ، الجزء الأول ، مصدر سابق ، ص١٠٧ .

١٠. المصدر نفسه ، ص١٠٧ .

١١. أنظر : محمد أزهر السماك، هاشم خضير الجنابي، جغرافية الوطن العربي ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص٤٢ .

١٢. رحلة أبن بطوطة ، مصدر سابق ، ص١٤٧ .

١٣. المصدر نفسه ، ص٢٥٥ .

١٤. المصدر نفسه ، ص٦ .

١٥. المصدر نفسه ، ص١١٤ .

١٦. عبد العزيز طريح شرف ، مناخ العالم ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٦٣ ، ص٥٣-٥٥ .

١٧. رحلة أبن بطوطة ، مصدر سابق ، ص١٥٨-١٥٩ .

١٨. المصدر نفسه ، ص١٥٣ .

١٩. المصدر نفسه ، ص١٩٩ .

٢٠. المصدر نفسه ، ص١٩٩ .

٢١. المصدر نفسه ، ص٢٠٠ .

٢٢. المصدر نفسه ، ص٦٩ .

٢٣. خطاب صكار العاني ، مصدر سابق ، ص٩٧ .

٢٤. رحلة ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص١٢٩ .

٢٥. المصدر نفسه ، ص١٥٩ .

٢٦. المصدر نفسه ، ص٢٢١ .

٢٧. المصدر نفسه ، ص٢٥٣ .

٢٨. المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥ .

٢٩. المصدر نفسه ، ص٢١-٢٢ .

٣٠. المصدر نفسه ، ص١٧ .